تلقي الخطاب النقدي البنيوي التكويني في الجزائر
من المحمول الفلسفي إلى المحمول السوسيولوجي

أ:سليم بركان

جامعة سطيف2 ـ الجزائر

تندرج هده الدراسة الموسومة بـ: تلقي الخطاب النقدي البنيوي والتكويني في الجزائر ـ من المحمول الفلسفي إلى المحمول السوسيولوجي ـ ضمن مجال نقد النقد للخطاب النقدي السوسيولوجي عموما والبنيوي التكويني خصوصا، لذلك سنحاول بداءة الإشارة إلى فعل التلقي للخطاب النقدي البنيوي التكويني في الساحة النقدية الجزائرية وهذا من خلال ما أثراه كل من "عمار بلحسن" في مؤلفه: الأدب والإيديولوجية و كذا "عمر عيلان في مؤلفه: السياق الإيديولوجي وبنية الخطاب الروائي، ثم نشير إلى الأصول الفلسفية والنقدية السوسيولوجية للمنهجية البنيوية التكوينية، كما تصورها ـ غولدمان ـ في مجموعة من المقولات المفهومية والتي أكد على ضرورة تمثلها في أي ممارسة ترجو هذا المسعى النقدي الغولدماني القائم على فعلي الفهم والتفسير لبنية العمل الأدبي.

La présente étude intitulée :La Réception du Discours Critique Structurale et Génétique En Algérie– de la portée philosophique à la portée sociologique– s'intègre dans le cadre de la critique du criticisme du discours critique sociologique en général et du discours structural génétique en particulier. Tout d'abord, nous essayons d'indiquer l'action de la réception du discours critique structural génétique dans la scène critique algérienne, et ce à travers ce que Ammar BELAHCENE a invoqué dans son œuvre : « La Littérature et l'Idéologie », ainsi que Omar AILANE dans son œuvre : « Contexte Idéologique et Structure du Discours Romantique ». Ensuite, nous indiquons les origines philosophiques et critiques sociologiques de la méthodologie structurale génétique, telle que GOLDMAN a imaginé, dans un ensemble d'arguments conceptuels, qui a confirmé la nécessité de son existence dans l'exercice que ce soit, qui cherche cette finalité critique goldmanienne portant sur l'action de la compréhension et de l'interprétation de la structure de l'œuvre littéraire.

إن الحديث عن مسارات التحول النقدي الأدبي من المناهج السياقية إلى البنيوية النسقية وما بعدها، يأخذنا للحديث عن أهم التغيرات النقدية الأدبية التي شهدتها الساحة النقدية الأدبية الجزائرية خاصة في معاينة الموقعية النقدية للخطاب السوسيو نقدي التي يحتلها ضمن دائرة النقد الجزائري، إذ يسجل الدارس ضمنها ذلك الاحتشام النقدي لهذا الفرع من النقد إن على مستوى النظرية أم على مستوى الممارسة وهذا باستثناء بعض الدراسات الأكاديمية والمقالات النقدية، المتناثرة هنا وهناك، فنجد منها ما هو مؤسس خطابها على محمول فلسفي صرف، كما هو موجود في مؤلف أ " عمار بلحسن " الموسوم بـ : " الأدب والإيديولوجيا " * . الذي نلمس فيه تأسيسا لخطاب نقدي فلسفي سوسيولوجي يؤطر لماهية الخطاب الإيديونقدي عامة والسوسيونقدي خاصة، وبالمقابل نجد ما هو مؤسس خطابها على محمول سوسيونقدي وهذا ما نلحظه في مؤلف : أ / عمر عيلان الموسوم بـ : " الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي " * وهو في ذلك يؤسس لممارسة نقدية سوسيوبنائية على نصوص روائية بمعنى أن خطابه النقدي كان مزيجا بين ما هو فلسفي سوسيولوجي وما هو نقدي بنيوي تكويني .

تكوينية تلقي الخطاب النقدي البنيوي التكويني: إن المتتبع لدراسة أ/ بلحسن يجدها مقسمة إلى ستة محاور رئيسية، تناول في المحور الأول إشكالية الإيديولوجيا والمثقف، بحيث يبين دور وفعالية الإيديولوجيا في المثقف أولا ثم للعبقري في إنتاج النصوص ثانيا، ثم انتقل في المحور الثاني إلى معاينة آليات اشتغال الإيديولوجيا داخل المجتمع والأدب، باعتبار أن هذا الأخير إنتاج إيديولوجي فني ولواقع مادي يتحدد بالمجموع التاريخي للممارسات الاجتماعية، ليشير من خلال ذلك إلى بعض المقولات النقدية السوسيولوجية كمقولة السياق الإيديولوجي، باعتبارها الإجراء النقدي في تفسير النص الروائي، ليصل في الأخير إلى الإشارة للجهاز المفاهيمي النقدي السوسيولغوي، كمقولتي " رؤية العالم " والبنية الدالة، التي تتماثل مع رؤية غولدمان بحيث أدرجه ضمن المحور السادس وأسماه بـ : " التحليل اللغوي والدلالي للنص الروائي "، هذا ما يشير صراحة إلى أن " بلحسن " بعدما صال وجال في بيان الماهية الفلسفية للمنهجية الإيديونقدية التي

اعتمدها بعض الدارسين ردحا من الزمن . انتقل بعد ذلك إلى تأسيس لخطاب سوسيونقدي أولا وسيولغوي ثانيا ذي الحمولة الفلسفيةوالنقدية البنيوية التكوينية التي استقاها من الإرث اللوكاتشي والغولدماني.

هذا ما جعل طبيعة الدراسة التي أنجزها أ / بلحسن حبيسة القراءة الفلسفية والفكروية ومنه جاء خطابه على الأدب والنقد عبارة عن إشارات فلسفية تفتقد إلى حد ما للفعالية النقدية السوسيلوجيةعلى النصوص الأدبية وكنتيجة لهذا التصور الفلسفي على خطاب النقد الأدبي راح أ / بلحسن يدعم خطابه الفلسفي بمرجعيات نقدية سوسيوبنائية بل تجاوزها إلى بعض الرؤى النقدية السيونصية التي تمثلها " بيير زيما "، وعلى العموم فإن هذه الدراسة التي أنجزها أ / بلحسن أعطت دفعا حقيقيا ونشاطا نقديا على هذا النوع من النقد ضمن الساحة النقدية الجزائرية، فعلى الرغم من أن طبيعة خطابه اقتصرت على الجدل الفلسفي إلا أنها أسست بطريقة أو بأخرى لخطاب نقدي سوسيولوجي تكويني ضمن مسار الحركة النقدية العربية عموما والجزائرية خصوصا.

وبالمقابل نجد في دراسة أ / عمر عيلان ذلك التحول النقدي الذي ينطلق من الماهية الفلسفية للنقد السويولوجي ليصل إلى الإطارالإجرائي النقدي التكويني بحيث حاول تمثل مقولات المنهجية النقدية السوسيوبنائية على نصوص عبد الحميد بن هدوقة، إذ ناقش في مؤلفه مفاهيم ومقولات الجهاز الإجرائي لمقولات الخطاب السوسيونقدي عامة والسوسيوبنائي خاصة، بحيث بين الأصول الفلسفية الغربية للنظرية السوسيونقدية، معرجا في ذلك إلى كيفية تمثل المقولات السوسيوبنائية على النصوص الأدبية، كما أفصح بجدية عن سبيله النقدي في دراسة هذه النصوص الروائية الجزائرية، كما أشار إلى علاقة علم الاجتماع بالأدب (فيزياء الأدب) وكذا إلى بعض الإسهامات النظرية العربية النقدية لهذا النوع من النقد وبين الآليات التي يعتمدها الباحث في كيفية تحليله للنصوص من خلال مرحلتي التفسير والتأويل، ثم انتقل إلى توضيح وبيان موقعية النقد الغولدماني ضمن المدارس والمناهج النقدية الأدبية الأخرى، ليصل إلى توضيح الجهاز المفاهيمي والإجرائي لمقولات المنهجية البنيوية التكوينية خاصة مقولتي : " رؤية العالم والبنية الدالة " هذه

الأخيرة التي اعتبرها" غولدمان" المقولة المفتاحية والإجرائية في الممارسة البنيوية التكوينية على النصوص الأدبية.

وضمن هذا نلاحظ أن أ/ " عيلان" يمارس قراءة ونقدا على نقد موقعية الخطاب النقدي البنيوي التكويني ضمن مسار الحركة النقدية العربية، كما لم يكتف بعرض النواحي النظرية الفلسفية بل تجاوزها إلى قراءة نقدية لتلك الممارسات النقدية التي مثلها " غولدمان " على نصوص " راسين وباسكال "خاصة في تحديده للرؤية المأساوية لهذه الأعمال، أما على مستوى الممارسة فلقد خصص له جانبا مهما في التحليل البنيوي التكويني لنصوص روايات عبد الحميد بن هدوقة، فقسم هذا الجانب إلى ثلاثة فصول تناول في الأول بعض دلالات السياق الإيديولوجي في النصوص، أما في الفصلين الثاني والثالث فقد بين كيفية اشتغال الأنساق الإيديولوجية في النصوص الروائية، ومن ثم حدد" رؤية العالم" لهذه النصوص من خلال تلمسه لأنماط الوعي الثلاثة المتمفصلة في ثنايا نصوص بن هدوقة كتحديده لمسارات الوعيين : الكائن والممكن في نص رواية : " نهاية الأمس "، فلقد تمكن إلى حد ما تلمس جزئيات الوعيين" الخاطئ" والكائن" ليصل إلى بيان كيفية تشكل دلالة الفكرة من جهة إلى تكوينية رؤية العالم في نص الرواية من جهة أخرى، أما في تفسيره وتأويله للنصوص الروائية فلقد اعتمد المنهجية نفسها في تلمس مظاهر الوعي المختلفة، ومن ثم استنطاق خطاب الإيديولوجية المهيمنة في النصوص سواء من حيث تجليه المكاني والزماني وهو في ذلك يعتمد القراءة التفسيرية والتأويلية التي أقرها غولدمان، فما يمكن قوله عن دراسة أ / " عيلان" النظرية والتطبيقية القائمة على الرؤية والإجراء فإنها تعد الأبرز ضمن دائرة النقد الجزائري إذ لم تبق حبيسة الجدل الفلسفي والسوسيولوجي بل تجاوزت إلى التحليل النقدي الأدبي وفق المنهجية النقدية السوسيوبنائية، فالأستاذ كان صارما وحذرا في الوقت نفسه في تمثل المقولات النقدية إدراكا منه لذلك البون في الممارسة بين ما هو فلسفي نقدي نظري وما هو نقدي ممارساتي، هذا ما جعل دراسته تجنح إلى الدقة العلمية .

إن محاولة الأستاذ قد راوحت بين طبيعة التحليل الاجتماعي من جهة والتحليل البنيوي من جهة أخرى هذا ما جعلها تحتوي أكثر النص الأدبي سواء من خارجياته أم من داخلياته وعلى الرغم من عدم انغماس هذه الدراسة ضمن إطار الماهية الفلسفية لهذا النوع من النقد إلاأنه يمكن القول أنها أسست بطريقة أو بأخرى ميلاد خطاب نقدي سوسيوبنائي ضمن مسار الحركة النقدية الجزائرية والذي يجعلنا نعتقد أنها تفتقر إلى حد ما مثل هذه الدراسات السوسيوبنائية باستثناء بعض الدراسات الأكاديمية لكل من : " محمد ساري " و" الأعرج واسيني " و"يوسف وغليسي" وغيرهم الذين حاولوا أن يعطوا دفعا لحركية النقد في الجزائر .

ولعل ما يلاحظ على هذه الدراسات والكتابات النقدية الأدبية في هذا المجال من النقد أنها اعتمدت التأصيل الفلسفي الغربي لماهية المقولات النقدية من جهة وعلى تدعيمها بمرجعيات اجتماعية وثقافية من جهة أخرى وهي إشارات فلسفية أكثر منها نقدية وعلمية ، وهذا ما تجسد في مؤلف أ / بلحسن علي غرار مؤلف أ/ عيلان الذي تجاوز الإطار الفلسفي إلى إطار النقد الأدبي السوسيولوجي .

فعلى الرغم من إدراك البحاثة لأهمية وفعالية هذا الفرع من النقد الأدبي خاصة في فتح مجالات أوسع وأرحب لقراءة وتأويل النص الأدبي، إلا أنها بقيت حبيسة القراءة الجاهزة للنصوص الأدبية التي تلهث وراء المضمون الإيديولوجي والسوسيولوجي(الشعرية المتبقية).

لعل الاهتمام بالنقد السوسيوبنائي تنظيرا وتطبيقا في الساحة النقدية الجزائرية ، يعطي للناقد انطباعا ب+مشروعية القراءة والتأويل للنص الأدبي من جانبيه الداخلي والخارجي . فالبحث في الأصول الفلسفية لهذا النقد كما سبق ذكره عند أ / عمار بالحسن، وهنا نسجل بعض الأسماء النقدية الجزائرية ك : أ / واسيني الأعرج، محمد ساري، عمر عيلان وغيرهم، جعلت النقد الجزائري يتدعم أكثر ويتطلع لآفاق نقدية واسعة ورحبة، فكما هو متعارف عليه أن النقد الأدبي لم يقم من فراغ بل له مرجعياته الفلسفية والفكرية والنقدية، إذا فالرجوع إلى فهم تكوينية هذا النقد السوسيوبنائي تمنح الدارس مشروعية تمثل نقد بناء وفعال، وعلى أهمية هذا النقد يقول : أ / محمد

برادة : " أنه قادر على كشف ما لم يكن معروفا من خصائص النص، وأنه مناسب لدراسة الأعمال الأدبية والفكرية، لأنه يتيح الربط بين العمل الفني وبين المرحلة الاجتماعية والتاريخية مع تجنب الأحكام الجاهزة التي اعتاد عليها بعض النقاد ... وأن يلصقوها بالإنتاجيات المنقودة اعتماد على دراسة المضمون وحده ودون اعتبار للعوالم الخاصة التي ينسجها المبدعون شكلا ومضمونا "[1] بل ويذهب أكثر من ذلك، د / محمد خرماش إلى أن هذا النقد : " ... لا يلغي الفني لحساب المضمون وإنما يقيم بينهما جدلية ماثلة في عالم تكويني ... "[2] فعلى فعالية النقد السوسيوبنائي على النص الأدبي سنحاول تتبع الجذور المعرفية والنقدية لهذا الفرع من النقد الأدبي، والذي نعتقد أنه لم يجد العناية والاهتمام في جامعاتنا، ذلك أن هذه الأخيرة تبقى الوسيلة الوحيدة لإعطاء شرعية الحضور والممارسة لهذا النقد سواء على المستوى التنظيري أم التطبيقي، كما تجعل الخطاب النقدي الجزائري مفتوحا على كل جبهات الفكر والنقد الأدبيين اللذين يعطيان بعدا ثقافيا : " لا ينبغي إغفاله، حيث أن جميع الذين تبنوا هذا النقد، قد تحدثوا بطريقة أو بأخرى عن مدى استفادتهم من الدراسات النقدية الحديثة والمعاصرة وعن تخيرهم له للجمع بين فوائد الدراسة المحايثة ومعرفة قوانين التركيب التي يقول بها البنيويين "[3]

1/ التكوينية النقدية للمنهجية البنيوية التكوينية : إن النقد البنيوي التكويني يأخذ بعين الاعتبار دراسة بنية العمل الأدبي دراسة تكشف عن الدرجة التي يجسد بها هذا العمل البنية الذهنية التي تتمتع بها الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المبدع، هذا ما جعل النقد السوسيوبنائي يعتمد في الكشف عن هذه البنية الذهنية من خلال: " المعطيات المعرفية والتي تشكل حيثيات النص من تاريخ وعلم اجتماع وعلم نفس اجتماع وأنثروبولوجيا أي بعامة ما تقدمه الحقول الإنسانية في نطاق المعرفة وكأن هذه القراءة تهدف أساسا إلى الوقوف في وجه الشكلانية لترد الاعتبار للأثر الأدبي مركزة على خصوصياته "[4] بمعنى أن مسار التحليل وفق هذا المنظور النقدي يأخذ بعين الاعتبار تكوينية النص من تاريخ ومجتمع ولغة كمرحلة أولى والتي يتم فيها "**فهم**" المسارات الفكرية والأدبية للنص ثم تليها مرحلة القراءة "**التأويلية**" لتلك الرؤى المتخفية في سراديب النص، فالنقد

السوسيوبنائي جاء كرد فعل على النقد الشكلاني الذي ألغى دور التاريخ وهمش المجتمع وغيب عبقرية الناص في عملية التشكيل الفني والجمالي والفكري للنص الأدبي، كل هذه الاعتبارات وغيرها جعلت " غولدمان " لا يعزف عن فصل النص من : " ... علائقه بالمجتمع والتاريخ، وعن جدلية التفاعل الكامنة وراء استمرار الحياة وتجددها " [5] و بعبارة أخرى حاول أن يوفق في عملية التحليل بين ما هو لغوي وما هو فكري وأن يجعل من هذه القراءة أكثر حيوية وإنتاجية تتأسس لغة تحليلها على عناصر دلالية منتجة بحيث تبتعد عن البحث عن ستاتيكية للغة النص لتتجه نحو التحليل الدينامي للغة خطاب النص الأدبي، وبناء عليه فقد صاغ هذه الأفكار النقدية وفق منهج البنيوية التكوينية الذي يأخذ بعين الاعتبار في عملية التحليل للنص الأدبي ما هو لساني واجتماعي على السواء .

وعن الأهمية الإجرائية لهذا المنهج يقول " غولدمان " : " إن التحليل البنيوي التكويني، في تاريخ الأدب، ما هو إلا تطبيق لمنهج عام في هذا الميدان على الخصوص، والذي نعتقد أنه المنهج الوحيد المقبول في العلوم الإنسانية ... " [6] و على هذا الأساس سنحاول تلمس مفاهيم ومقولات منهج البنيوية التكوينية مع الحرص على تبين فعالية المقولات الغولدمانية عند مباشرة النصوص من منظور التحليل السوسيوبنائي للنص الأدبي .

2 / **مقولات المنهجية البنيوية التكوينية** : إن ما يجب أن نشير إليه هو أن " غولدمان " أعاد قراءة المشروع النقدي اللوكاتشي وسوغه وفق مقولات نقدية بنيوية سوسيولوجية كـ : رؤية العالم vision du monde البنية الدالة " structure significatif الفهم compréhension التفسير explication، أنماط الوعي وبدراسة هذه المقولات" الغولدمانية" يمكن أن نؤكد على الصلة التي تربط العلاقات الاجتماعية بالإبداع الأدبي، وبعبارة أخرى فإن البنى الذهنية للطبقة الاجتماعية تتمفصل عبر البنى النصية للنص الأدبي وتأخذ بذلك شكل رؤية كونية يحاول المبدع بثها عبر رسالة أدبية وافية، هذا ما جعل تصور " غولدمان " لذلك النقد الاجتماعي التقليدي للأدب يتجاوز تلك المرآوية والانعكاسية اللوكاتشية، ومن ثم فإن النص الأدبي يتجاوز ما هو إيديولوجي إلى تبني رؤية

كونية يصوغها الكاتب وفق تشكيل لغوي ونصي وفني ممتاز مع محاولة خلق عالم جمالي متلاحم تتجاوب فيه بنيتها الفكرية مع تلك الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الأديب.

يعد " غولدمان " بحق مؤسس المدرسة الجديدة في النقد الاجتماعي للنص الأدبي، ولعل ما تميز به " غولدمان " عن أستاذه " لوكاتش " هو الدقة في التحليل والتقيد بإجراءات المنهج في مباشرة النصوص الأدبية من زاوية معماريتها اللغوية ودلالاتها الفكرية، هذا ما جعله يعد رائد التجديد للنقد الاجتماعي وكذا لبعض التصورات الهيجيلية والمفاهيم اللوكاتشية، فإذا بمشروع النقد الاجتماعي للأدب قد اعترته بعض النقائص المنهجية والمفاهيمة والمفهومية في الإحاطة ببنية النص الأدبي، فقد تكفل " غولدمان " بإعادة صياغة بعض المفاهيم اللوكاتشية، كمفهوم البنية، الشكل، المنظور وهو يهدف من وراء ذلك إلى دراسة النص الأدبي دراسة تكشف عن البنية التي يجسد بها النص الأدبي البنية الذهنية للطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الأديب العبقري، هذا ما يعني أن " غولدمان " تعدى بمشروعه السوسيوبنائي تلك الآلية والانعكاسية التي وقع فيها تيار النقد الاجتماعي للأدب، وبالتركيز في عملية التحليل على البنية الذهنية التي تتمثل في الرؤية الكونية التي يحملها النص الأدبي والتي تأخذ شكل الوسيط بين الطبقة الاجتماعية التي تصدر عنه ولتلك الأنساق الفنية والثقافية التي تحكمها هذه الرؤية، وبهذا يكون " غولدمان " قد صاغ : " مشروعا نقديا ذا طبيعة موضوعاتية وسوسيولوجية "[7] وجعله أساسا لتحليل النصوص الأدبية وبالكشف عن الأنظمة الفكرية التي تتبناها الطبقة الاجتماعية وعن أنظمة الصياغة الفنية التي يعتمدها الأديب العظيم في نمذجة رؤيته للعالم، وهذا ما تبلور في منهج البنيوية التكوينية الذي يعد : " من أشهر مناهج علم اجتماع الأدب، وهي تعنى بمحاولة فهم العلاقة بين النص الأدبي والمجتمع "[8] و بعبارة أخرى، فإن هذا المنهج يتميز عن باقي المناهج البنيوية الشكلانية، كون هذه الأخيرة تنظر للنص الأدبي : " كتجريد مطلق أو كنظام مستقل عما عداه ومكتف بنفسه، بل تفهمه من حيث وظيفية دالة على مستوى التلاحم الداخلي نفسه . "[9] بالمقابل فإن التحليل البنيوي التكويني :" يتعمق في الكشف عن وظيفة التلاحم الداخلي، كما يضطر للعودة إلى الخارج، حيث الطبقة أو المجموعة الاجتماعية

للأديب المنتج "[10] وبعبارة أخرى فإن التحليل البنيوي التكويني يعتمد على الوصف المعماري للنص مع التركيز على دور التاريخ والمجتمع من أجل إعطاء إنتاجية دلالية أوسع للنص الأدبي، ذلك أن بنياته الصغرى تتوالد من بنياته الكبرى والتي تمثل البنى الاجتماعية وعادة ما تكون ممثلة بطبقة اجتماعية ينتمي إليها الأديب الممتاز (العظيم) .

ولهذه الأسباب الشكلية وغيرها رفض " غولدمان " تلك التحاليل التي تلهث وراء المضمون الإيديولوجي أو ما سماه بـ : سوسيولوجيا المضامين أو ما أشار إليه (دوبشي : شعرية البقايا) التي تعول في التحليل على المرآوية والانعكاسية، وبالمقابل رفض القراءات الشكلانية الصرفة التي يغدو فيها التحليل جافا وساكنا بل وقاصرا في أحايين كثيرة لإلغائه لدوري المجتمع والتاريخ، وعلى هذا الأساس اعتمد " غولدمان " التحليل البنيوي التكويني وهو يهدف من وراء ذلك إلى إعطاء مصداقية ومشروعية أكبر لقراءة النص الأدبي من جانبيه الداخلي والخارجي، بمعنى عدم تغييب جانب على آخر، لذلك يرى أن : "البنيوية التكوينية قد بينت تغييرا كليا في توجيه الفرضيات الأساسية، والتي هي بالتحديد: الوعي الجمالي في عملية الخلق الأدبي يأتي بتفاعل بنيات الفضاء الأدبي، والتي هي متماثلة مع بنيات الذهنية لبعض الفئات الاجتماعية، أو بعلاقة واضحة فيما بينها، إن على مستوى المحتويات أي خلق الفضاء المتخيل الذي يتمظهر من خلال البنيات الفنية، فالكاتب لديه الحرية الكاملة في اختيار البنيات ... " [11] فهذا تأكيد واضح على أهمية وفعالية النهج البنيوي التكويني في تحليل النصوص الأدبية، سواء على المستوى النصي الداخلي أو على مستوى البناء الفكري الخارجي للنص، وهو يهدف أساسا إلى الكشف عن تلك الرؤية الكونية المتوارية في ثنايا النص الأدبي، بمعنى آخر أن يتجاوز بطريقة أو بأخرى المنظور الأيديونقدي، الذي ينظر إلى النص كخطاب إيديولوجي أو كانعكاس مرآوي لإيديولوجيا المؤلف أو الشريحة الاجتماعية التي ينتمي إليها المبدع.

لعل هذه الأفكار الفلسفية والنقدية السوسيولوجية الأدبيةو غيرها، هي التي بنى عليها " غولدمان " منهجه البنيوي التكويني، المتصل بطبيعة البحث عن الوعي الاجتماعي وكذا للبنية الدالة

ولأصناف الوعي المختلفة، كل هذه المقولات قادته إلى الصياغة النهائية لمفاهيم هذا المنهج والذي يرتكز على أسس ومفاهيم تاريخية محددة : كرؤية العالم التي تتميز طبيعتها بأنها : " مفهوم تاريخي، يصف الاتجاه الذي تتجه الطبقة أو المجموعة الاجتماعية في فهم واقعها الاجتماعي ككل، بحيث يصل هذا المفهوم ما بين قيم هذه الطبقة – المجموعة الاجتماعية – وأفعالها في وحدة تصورية من ناحية وتميز ما بينها وبين غيرها من ناحية أخرى "[12] .

أما من ناحية المنظور الإيديولوجي فإن رؤية العالم هي : " مفهوم بديل عن الإيديولوجيا، ومتميزة عنها إذ أنها لا تعني فقط نسق الأفكار، وإنما تحتوي – أيضا – على كل المشاعر والأحاسيس ... فهذه الأفكار على الرغم من انتمائها إلى الكاتب، فهي بذلك تجسيد لرؤية العالم الخاصة لطبقة الكاتب "[13] وبمعنى آخر أن رؤية العالم قد تُشاكل الإيديولوجيا في أحايين كثيرة، فإذا تبنتها شريحة في المجتمع فهي إيديولوجيا، أما إذا تبنتها طبقة اجتماعية فهي تشكل رؤية للعالم يحاول الكاتب تجسيدها في إبداعاته عبر تشكيل لغوي فني رفيع، ذلك أن : " الأعمال الأدبية التي تكتب في حقبة من الزمن، تسعى إلى تكوين بنية ذات دلالة، وهذه الدلالة تشير إلى رؤية الكتاب والفنانين والمثقفين أو شريحة الأنتليجنسيا للعالم "[14].

وبعبارة أخرى فإن صياغة الرؤية الكونية في النص الأدبي ليست بالعملية السهلة بل هي أصعب من ذلك بكثير، ذلك أن الكاتب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الجوانب الفنية والجمالية والاجتماعية والتاريخية للإبداع، إنه مطالب بعدم توظيف نواياه الإيديولوجية لأن حضورها المكثف يفقد النص الأدبي جماليته الفنية ، فيغدو النص مجرد خطاب إيديولوجي مؤجل ومؤقت على السواء، وبالمقابل عليه أن يفتح مجالا واسعا للحوار الفكري مع باقي أشكال الوعي الأخرى، هذا ما يعطي لنصه ديمقراطية القراءة والتأويل وفي السياق نفسه يرى "غولدمان": "أن كل انتصار للنوايا الواعية للكاتب سيكون مميتا للعمل الادبي، الذي تتوقف قيمته الإستيطيقية على المقياس الذي يعبر عنه "[15] هذا ما يشير إلى أن الخلفية النظرية النقدية التي اعتمدها " غولدمان " في تصوره لمفهوم الرؤية الكونية أنه لا يتشكل عبر مسار أحادي بل ويتأسس على مسارات فنية وذهنية على السواء، فاعتمادا

على هذا التصور المفهومي النقدي البنيوي التكويني يجد الناقد نفسه مدعوا للبحث والكشف عن " البنية الدالة " التي تعد من أهم المقولات الأساسية التي يرتكز عليها النهج البنيوي التكويني، فمفهوم البنية وفق تصور " بياجيه "تعني: أنها نسق متحول له قوانينه الخاصة باعتباره نسقا، علما بأنه من شأن هذا النسق أن يظل قائما ويزداد ثراء بفضل الدور الذي تقوم به تلك التحولات نفسها، دون أن يكون من شأن هذه التحولات أن تخرج عن حدود ذلك النسق أو أن تهب بأية عناصر أخرى تكون خارجة عنه ...كما تتسم بالخصائص الثلاثة : الكلية، التحول، التنظيم الذاتي " [16].

أما " غولدمان " فإنه عندما يتحدث عن البنية التي تتيح لنا فهم شمولية الظاهرة الاجتماعية التي يعبر عنها الكاتب لا لكونه فردا بكونه يتكلم باسم الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، فهي تعني :" ذلك الترابط الحاصل بين رؤية العالم التي يعبر عنها النص في الواقع وبعناصره الداخلية شكلية كانت أم فكرية، كما أن الوصول إليها يستلزم بحثا جديا للأحداث الواقعية، بالإضافة إلى معرفة معمقة للقيم الإيديولوجية، ويتحقق ذلك عبر محاور في النص الأدبي وهي : الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي تعيشها الطبقة والتي يعبر عنها الأديب في نصه " [17] فالوصول إلى فهم البنية الدالة للنص يعني فهم طبيعة دلالة النص الأدبي، ذلك أن : " مفهوم البنية الدالة يعني دراسة البناء في ضوء دلالاته المختلفة " [18] وبالمقابل تسمح لنا بأن نطلق بعض الاحكام على القيمة الفنية والجمالية للنص ومن ثم على مقدار الرؤية الكونية المنسجمة إن على مستوى الفنية للصور الخطابية أم على مستوى تكوينيتها : " فالبنية الدلالية ذات منظور واسع لا يغفل التحليل الداخلي للنتاج واندراجه ضمن البيانات التاريخية والاجتماعية، ..... وفي المقام الأخير يدعو إلى إدخال النتاج في علاقة مع البنيات الأساسية للواقع الاجتماعي والتاريخي " [19].

بمعنى آخر أن مفهوم البنية الدلالية، وفق المنظور الغولدماني، هو أداة أساسية للبحث عن تكوينية النص الأدبي، إما على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي، هذا ما يعني أن: " الأعمال الأدبية التي تكتب في حقبة من الزمن تسعى إلى تكوين بنسبة ذات دلالية، وهذه الدلالة تشير إلى رؤية الكتاب والفنانين والمثقفين أو شريحة الأنتلجنسيا للعالم "[20]. وعلى الرغم من الصعوبة التي

يلاقيها الناقد في استكشاف البنية الدلالية للنص الأدبي، إلا أنها ضرورية لمعرفة مختلف الدلالات التي يحملها النص، وعبر استكشاف البنية الدلالية للنص المسرحي، استطاع غولدمان :" اكتشاف الرؤية التراجيدية لمسرح " راسن " ولأفكار" باسكال " وهي نتائج لرؤية كونية لطبقة "نبالة الرداءة" التي ينتمي إليها الكاتبان، بالإضافة إلى تداركه ذلك التوازن بين تطور المجتمع البرجوازي، وتطور مفهوم البطل الإشكالي من خلال أعمال " مالرو " وكذا سيطرة الرأسمالية بإقصاء القيمة الإنسانية للفرد " [21].

لعل الحديث عن مفهوم" البنية الدالة "، يقودنا للحديث عن مفهوم" الوعي"، الذي يعد هو الآخر من المقولات الاساسية للمنهج البنيوي التكويني، ذلك أنه يمثل مظهرا من مظاهر السلوكية البشرية، فكل فعل أو واقعة اجتماعية يستتبع عنه بعض أشكال الوعي سواء أكانت سلبية أم إيجابية، فدراسة هذه الوقائع بكيفية إجرائية تمنح النقد فعالية وإنتاجية كبير، وفي سياق حديثه عن الوعي، يميزه – غولدمان – بين صنفين رئيسيين للوعي هما الوعي الممكن والوعي الكائن، فالأول يعني به ذلك الوعي الذي : " يمكن أن تفعله طبقة اجتماعية ما، بعد أن تتعرض لمتغيرات مختلفة، دون أن تفقد طابعها الطبقي " [22]، بمعنى أنه ذلك الوعي الممتاز، الذي يميز نظام فكر الطبقة الاجتماعية، والذي عبره تتغير الأنظمة الاجتماعية السائدة، وهذا بعد أن تتعرض لبعض التغيرات الفكرية، ومع عدم تخليها لانتمائها الطبقي، فهو : " وعي شمولي قادر على تغير التاريخ، كما لن يتحقق هذا إلا بفعل عبقرية الأديب، الذي يستطيع أن يعبر عن رؤية العالم لطبقة عينة، وهذا الوعي الممكن هو الرؤية للعالم " [23]، وبعبارة أخرى، أنه ذلك الوعي الفعال القادر على التجديد والتغيير للواقع في المجتمع، وبالمقابل، قد تبقى هذه الطبقة الاجتماعية عاجزة في – أحايين كثيرة –عن تحقيق أو تجسيد رؤيتها على أرض الواقع، ذلك أنها تعيش تحت سيطرة فكر سائد، هو نظام فكر الطبقة المضادة، والتي تحاول حجب حقيقة رؤاها الفكرية بالنسبة للطبقة المسحوقة، والتي هي الأخرى تعيش على الوهم الفكري الساذج او الحاملة لوعي خاطئ على حد مقولة ماركس، هذا ما يجعلها ترضخ تحت تأثير الطبقة السائدة.

أما فيما يخص مفهوم " الوعي الكائن " فهو حسب – غولدمان – يعني ذلك الوعي :" الناجم عن الماضي بمختلف أبعاده وظروفه وأحداثه، بما تسعى كل مجموعة اجتماعية لفهم واقعها انطلاقا من ظروفها المعيشية والاقتصادية والفكرية والدينية ..." [24]، وبين هذا وذاك يرى – غولدمان – أنه يجب : " البدء بالتمييز الأولي بين الوعي القائم بما له من مضمون ثري متعدد، وبين الوعي الممكن باعتباره الحد الأعلى من التلاؤم الذي يمكن أن تدركه الجماعة دون أن تغير طبيعتها " [25] فالعلاقة بينهما هي أن الوعي الممكن يتجاوز الوعي الكائن، وإضافةٌ عليه، فالوعي الكائن يتميز بأنه وعي ساذج ومنحبس في الواقع، كما أنه لا يتعدى الواقع إلى أفق رحب وواسع، بل وإنه يستنجد بالماضي أو بمعنى آخر أنه ذلك الوعي المجتمعي الذي يمتلكه كل أفراد المجتمع، بحيث أنهم لا يمتلكون القدرة الكافية على تكوين رؤية كونية، وهو أمر لا يتأتى إلا إذا بلغ هؤلاء قمة الوعي الممكن مع استيعابهم لحقيقة فكرهم ضمن الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها، ومن هنا يمكن القول إن الوعي الكائن مرتبط أشد الارتباط بمفهوم الشريحة الاجتماعية، على غرار الوعي الممكن المرتبط بمفهوم الطبقة الاجتماعية التي تطمح إلى التغيير والتجديد وفق كونية فعالة .

من هذا وذاك يمكن تحسس طبيعة العلاقة بين الوعيين – باعتبارها ضمنية – بمعنى أن الوعي الممكن يتضمن الوعي الكائن وإضافة عليه، أي يستند عليه ويتجاوزه في الوقت نفسه إلى أفق أوسع وشامل، وبعبارة أخرى إنه الوعي الممتاز الذي يمثل رؤية كونية للطبقة الاجتماعية القادرة على تحريك التاريخ وتجديد نظام فكر المجتمع، وبالتالي فإن الطبقة الاجتماعية الحاملة لهذا الوعي الراقي قابلة للتغيير والتجديد بالاعتماد على بعض الأشكال الأدبية والثقافة والتي عبرها تحاول : " تجسيد وبلورة رؤية للعالم لدى هذه الطبقة أو تلك، وبجعلها تنتقل من الوعي الفعلي الذي بلغته إلى الوعي الممكن، ولا يتوفر ذلك إلا للكتاب والمفكرين الكبار دون الصغار منهم، الذين يتوقفون عند الوعي الفعلي لدى طبقة ما ويقتصرون على وصفه" [26] ، ومما سبق يتبين لنا أن – غولدمان –توصل بهذه المقولات إلى بناء منهج قادر على احتواء النص من جميع جوانبه سواء أكانت داخلية أم خارجية، بمعنى أن مسار التحليل وفق هذا التصور يزاوج بين :"... الإنتاج الفكري أو المادي من خلال

مرحلتين أساسيتين ومتلازمتين هما مرحلتا الفهم والتفسير ..." [27] أما الأولى فتقتضي البحث عن معمارية وتوزيع البنى الداخلية للنص وفق المستويات الأسلوبية والتركيبية والسردية، دون ربطها بالمكونات الخارجية لها، فإذا كنا بصدد البحث عن التمثلات الفكرية في النص، فيلزمنا فهم معمارية البنيات التركيبية الناقلة للخطاب، ثم ربط هذه البنيات بمكوناتها الخارجية / التكوينية من أجل استكناه مختلف الدلالات التي يحملها النص، فالفهم الجيد والتفسير الحصيف للنص يعني : " ذلك البحث في أجزاء بنيته الداخلية والخارجية التي تتسم بالتماسك، لكي يتسنى لنا بعد ذلك ربط البنيات الداخلية بمثيلاتها الخارجية " [28] هذا ما يعني أنه في المرحلة الأولى يكون الاعتداد بالنص ولا شيء سوى النص، ثم تليها المرحلة الثانية التي تربط البنيات الداخلية بمثيلاتها الخارجية من أجل إعطاء دلالات مفتوحة ومتنوعة على مستوى هذه البنيات النصية، وفي هذا السياق أشار – غولدمان – إلى نقطة أساسية أثناء مباشرة التحليل من خلال مرحلتي :" الفهم والتفسير"، مع عدم إعطاء الأهمية الكبيرة في الكشف عن القناعات الإيديولوجية التي يعبر عنها الكاتب، لأن ذلك يجعل الدراسة تحيد عن طابعها الحقيقي والفعال، هذا ما جعل النقد البنيوي التكويني يتجاوز تصور وأفكار النقد الاجتماعي التقليدي للأدب، إلى تصور سوسيو بنائي يأخذ بعين الاعتبار ما هو داخل نصي وما هو خارج نصي، فمنهج البنيوية التكوينية يتحرك وفق مسارين اثنين من حيث الظاهر، لكنه في حقيقة الأمر يتحرك وفق مسار واحد هو المزاوجة بين الداخلي والخارجي في قراءة وتأويل النص الأدبي .

وصفوة القول : إن هذه الدراسات وغيرها والتي قام بها بعض البحاثة الجزائريين تشير إلى حد ما إلى حضور وعي نقدي متميز من جهة، وإلى تمثل تجربة نقدية متواضعة سعت للارتقاء بالخطاب النقدي الاجتماعي في الجزائر من حيث تلويناته المختلفة وتصوراته النقدية وتطوراته المختلفة، و من ثم رسم آفاق لخطاب نقدي سوسيولوجي واعد من أجل فهم وتفسير النصوص الأدبية، فهذه التجارب وغيرها على الرغم من حداثتها إلا أنها تشير بطريقة أم بأخرى إلى أنها ستؤول إلى طريق الاحترافية في تلقي الخطاب النقدي السوسيولوجي الحديث والمعاصر والذي بقي

أسير ممارستين : الأولى هي النزوع التوفيقي لمختلف الخطابات النقدية القائمة على رؤى واتجاهات أخرى، والثانية تدخل ضمن الممارسة الآلية والتعليمية باعتماد منهج أو آخر من أجل تفسير وتأويل النص الأدبي .

مراجع البحث وإحالاته:

*عمار بلحسن : الأدب والإيديولوجيا، المؤسسة الوطنية للنشر، د ط، الجزائر، 1984 م .

*عمر عيلان، الإيديولوجيا وبنية الخطاب الروائي، منشورات جامعة قسنطينة، ط 1، 2001 م .

1 محمد برادة، تقديم ترجمة كتاب الرواية المغربية، عبد الكبير الخطيبي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1997 م، ص 7.

2 محمد خرماش، إشكالية المناهج في النقد الأدبي المغربي، مطبعة أنفو، فاس، 2001 م، ط 1، ص 1.

3 المرجع نفسه، ص 02 .

4 عاطف أحمد فؤاد، علم اجتماع الأدب، دار المعرفة الجامعة – الاسكندرية –، د ط، القاهرة، 1996م ص 82 .

5 مجموعة من المؤلفين : البنيوية التكوينية، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 2، بيروت، 1984 م، ص 45 .

6 . Lucien goldman , pour une sociologie du roman . ed . gallimarde . paris 1964 . p . 337

7 أنظر : الطاهر رواينية، القراءة الموضوعاتية للنص الأدبي، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، 1997 م ص 76 .

8 عاطف أحمد فؤاد المرجع السابق . ص 82 . 83

9 جابر عصفور، عن البنيوية التكوينية . مجلة فصول . القاهرة . يناير . 1981 م . ص 80.

10 المرجع نفسه . ص 80 .

11 . ibid. p . 386

12 جابر عصفور : المرجع نفسه . ص 85 .

13 عاطف أحمد فؤاد : المرجع السابق . ص 80 .

14 إبراهيم خليل، في النقد والنقد الألسني، ص 55 .

15 مجموعة من المؤلفين : المرجع السابق . ص 17 .

16 لوسيان غولدمان، المادية الجدلية وتاريخ الأدب، ص 29 .

17 إبراهيم خليل، المرجع نفسه، ص 183 .

18: ibid. p . 111

19 محمد عل[illegible]ري : علم اجتماع الأدب . دار المعرفة . القاهرة . 2002 م . ص 183 .

20 إبراهيم الخليل :المرجع السابق . ص 55 .

21 جمال شحيد، في البنيوية التركيبية، دار ابن رشد، ط 1، بيروت، 1982، ص 58 .

22 المرجع نفسه . ص 40 .

23 صالح ولعة : البنيوية التكوينية ولوسيان غولدمان، مجلة التواصل، جامعة عنابة، 2001 م، ص 255

24 المرجع نفسه، ص 255 .

25 المرجع نفسه، ص 256 .

26 جمال شحيد، المرجع السابق، ص 41 .

27 محمد خرماش، المرجع السبق، ص 291 .

28 حميد لحميداني، النقد الروائي والإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي، ط 1، بيروت، ص 68 .